الاستشراق وكتابة تاريخ بلاد فارس

الدكتور فاروق عمر فوزي
جامعة بغداد ..كلية الآداب

لعل اهم نتيجة حققها قيام الدولة العربية الاسلامية هي انتهاء تلك الحروب الطويلة الأمد والمدمره بين الامبراطوريتين الساسانية الفارسية والبيزنطية (الرومية) مما ادى الى حالة من الاستقرار والازدهار لم تشهدها المنطقة منذ قرون .

فقد عاش سكان الامبراطوريتين وخاصة الاقاليم الحدودية كالعراق والشام والجزيرة الفراتيه حالة حرب شبه مستمرة خلال القرن وربع القرن الاخير قبل ظهور الاسلام . وكان تأثير هذه الحروب واضحاً في النزيف الدموي والاستنزاف الاقتصادي وتخريب الاراضي والمدن وارهاق الشعوب بالضرائب والتكاليف وسلب الحريات العقائدية والخاصة .

وقد نتج عن حالة الأمن والاستقرار ازدهاراً حضارياً في مجالات عديدة شاركت فيه شعوب عديدة مع العرب المسلمين صانعي الدولة الجديدة . والذي يهمنا هنا هو النهضة الثقافية وعلى وجه الخصوص الكتابات االادبيه والتاريخية

ولابد ان نشير بدءاً الى ان الفرس فئتان : الاولى آمنت بالاسلام واخلصت لمبادئه ووالت الدولة العربية الاسلامية وبتنت الفكر العربي الاسلامي وحاربت المبادئ المناهضه والمعادية . وقد ظهر من هذه الفئة العديد من المفكرين والمؤرخين والادباء والعلماء الرواد . ويهمنا في هذا المجال مجموعة من المؤرخين على رأسهم الطبري صاحب التاريخ وكذلك التفسير ، وابن قتيبة صاحب كتاب العرب وكتاب المعارف وعيون الاخبار وغيرها ، والجاحظ صاحب الكتب والرسائل المشهودة في الدفاع عن العروبه والاسلام تجاه مفتريات واباطيل الشعوبيه والزندقه . لقد اثبتت كتب هؤلاء الفرس المسلمين والموالين للفكر العربي الاسلامي والمخلصين للدولة العباسية قبل غيرهم من الكتاب وحدة التاريخ العربي الثقافي بحيث بات كل عصر متمم للأخر كما في عيون الاخبار لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ . واثبتت وحدة التاريخ العربي السياسي كما في كتاب المعارف لابن قتيبة كذلك . وأشاد الجاحظ بعرب الجاهلية وكياناتهم السياسية والحضارية . بل راح نفس هذا الكاتب يؤكد على وحدة الامة لا القبيلة وما القبائل الا مظهر من مظاهر الأمة الواحدة . وتبنى الطبري في تفسيره « للشعوب » وجهة النظر العربية الاسلامية المناهضه لوجهة النظر الشعوبية . فقد قال الطبري بان الشعوب وحدة إجتماعية اكبر من القبيله والعشيرة بينما رأت وجهة النظر المعادية ان الشعوبية تعني الفرس وفضلتهم على العرب اما الفئة الثاني فهي التي تسترت بالاسلام ظاهراً وتمسكت بنزعتها الفارسية بكل ماتشمل هذه النزعة من مثل وقيم وتقاليد . وبقدر مايتعلق الأمر بالمجال الثقافي الادبي والتاريخي فقد حاولت هذه النزعة ان تشكك بدور العرب التاريخي وفضلهم في الاسهام بالحضارة الانسانية وحاولت التشويه والدس

عبر حقب التاريخ العربي الاسلامي مالامكنها ذلك . ولعل الباحث يكشف امثال هذه الروايات في كتاب الاخبار الطوال للدينوري (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥ م) حيث تبالغ دور الفرس مثل ابي مسلم والبرامكه بل انها تجعل من بعضهم ابطالاً اسطوريين . كما وان الدينوري يهمل بعض المؤامرات الفارسية ضد الدوله كمؤامرة الخلال مثلاً . وتجد مثل هذا الميل كذلك في كتاب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء لحمزة الاصفهاني .

وتهتم كتب التاريخ المحلي الفارسية باقاليم بلاد فارس وتفّصل في احداثها السياسية او غير السياسية ولذلك فإن بعض الاحداث او الحركات التي يشير الطبري اليها بسطر اوفقرة قصيرة ، تشير اليها مصادر التاريخ المحلي بكثير من التفصيل والاسهاب . على ان الموقف العدائي لكثير من هذه التواريخ للسلطه المركزية في بغداد وسياستها في بلاد فارس واضح تماماً ، كما وان ميل مؤرخي التاريخ الفارسي المحلي لحركات التمرد والمعارضه وتأييدهم لها واضح ايضاً . ومن التواريخ المحلية لبلاد فارس تاريخ طبرستان وتاريخ سيتان وتاريخ اصفهان وتاريخ قم وتاريخ نجارى وغالبيتهم يتميزون بنزعه اقليمية واضحة ويهاجمون السلطه العباسية . وقد حاول بعض المؤرخين كتابة تاريخ الفرس قبل الاسلام . بل ان بعض الرواة من الشعوبين كانوا على حد قول الجاحظ نفسه - ينتحلون الاخبار والروايات، ويصنفون الكتب في تاريخ الفرس وتراثهم قبل الاسلام حتى اختلط على المرء الصحيح بالموضوع . ولعل اشهر من كتب في ذلك ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) الذي ألف كتابة الموسوم (غزر سير ملوك الفرس) . كما وان الفرس يؤكدون على (شاهنامه) الفردوسي ويعتبرونها كنزاً زاخراً بترائهم وقد ترجم الشاهنامه الى العربية الفتح بن علي البنداري . كما وان لدينا القليل من الوثائق والعهود التي تعود الى العصر الساساني . ولهذا تزخر كتب التاريخ العربيه التي تذكر اخبار الفرس قبل الاسلام بالكثير من الاساطير والحكايات المفعمة بالخرافة . ولذا فإن من الحقائق المعروفة لدى المختصين بتاريخ بلاد فارس هي عدم وجود كتاب تاريخي باللغة الفارسية يتعلق بتاريخ فارس حتى بدايات العصر المغولي (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) ، وان الذي يبحث عن تاريخ بلاد فارس في العصر الاسلامي (١ هـ - ٦٥٤ هـ / ٦٤٢ - ١٢٥٥ م) لابدله ان يعتمد على كتب التاريخ العربي الاسلامي العام المكتوبه باللغة العربية في غالبيتها العظمى . ويبدو ان عملية التدوين التاريخي لم تلقى اهتماماً كبيراً لدى الفرس قبل الاسلام ودليلنا على ذلك عدم وجود كتاب تاريخي بالمعنى الحقيقي لدى الفرس قبل الاسلام . وقد دفع هذا النقص العديد من المؤرخين - ذوي الاصل الفارسي - كالطبري والدينوري وابن قتيبة الى اتخاذ النموذج العربي في الكتابة التاريخية . هذا اضافة الى كونهم

كتبوا باللغة العربية لغة الدين والدولة واللغة التي شاعت وانتشرت في ارجاء الحواضر الاسلامية باعتبارها لغة الثقافة . ولذلك فلم يكن من الحكمة كتابة التاريخ بغير اللغة العربية .

لقد كانت اللغة العربيه ـ لغة القرآن والدواوين والثقافة ـ بالنسبة للعالم الاسلامي كاللغة اللاتينية بالنسبة للعالم الاوربي في العصور الوسطى . فهي الواسطة المهمة للعلاقات والارتباطات بين شعوب الدولة الاسلامية الواحدة . ولكن هل كان كل الفرس ميالين الى تكوين هذه الارتباطات والتمازج ؟ لقد كانت طبقة النبلاء والدهاقين ورجال الدين الزرادشت ضد هذه النزعة ، ولهذا لم تكن تشجع انتشار اللغة العربية او الاسلام بين الفرس لاسباب اجتماعيه واقتصادية خاصة بها . وقد استمرت هذه الطبقات الفارسية تشجع تداول اساطير الملوك الفرس القديمه وتستذوقها في مجالسها ولم تهتم من بعيد او قريب بتاريخ بلاد فارس في العصر الاسلامي . فهذا امر لايهمها ولعل ذلك يعد سبباً اخر لعدم كتابة المؤرخين الفرس في هذه الفترة المبكرة لكتبهم باللغة الفارسية . لقد ادرك هؤلاء المؤرخون ان من العبث كتابة تاريخ فارس الاسلامي لمجتمع لا يهمه هذا التاريخ حتى لو كتب باللغة الفارسية !!

على ان اللغتين العربيه والفارسيه اثرتا في بعضهما فدخلت العديد من الكلمات العربيه في اللغة الفارسية كما ظهرت اشعاراً وحكماً ورسائل ديوانيه وقصص واسمار وخرافات وتوثيقات عربية في لفظها واسلوبها ولكنها فارسية في معانيها ومرامي رماتها . ولعل ذلك يدل على مرونه الفكر العربي ـ الاسلامي في مقابل الفكر الشعوبي المتزمت . ففي الوقت الذي استمر الشعوبيون ومن يساندهم من الدهاقين ورجال الدين الفرس في التمسك بما عندهم من اساطير ملوكهم وحكاياتهم الفارسية لايرتضون عنها بديلاً . تقدمت الثقافة العربيه الاسلاميه الى منتصف الطريق وابدت مرونة ورغبة للتمازج والتبادل الثقافي مع الفرس فنقلوا من الفارسية ماتواجد من حكم وتوثيقات ورسائل ديوانيه يدل اسلوبها في التفخيم والتبجيل على انها فارسيه . ويمتدح الجاحظ هذه النزعة الجديدة المرنه ويعطي امثلة ونماذج من الجيل الجديد من المثقفين الذين مازالوا بين اللغتين والثقافيتين امثال موسى بن سيار الاسواري والعتابي . بل ان الجهشاري، شرع في تأليف كتاب يضم ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم « فاجتمع له من ذلك اربعمائه ليله وثمانون ليله . كل ليله سمر تام يحتوي على خمسين ورقه اقل او اكثر ثم عاجلته المنيه قبل استيفاء مافي نفسه من تتمة ألف سمر » . واكثر من ذلك فان خلفاء الدولة العباسية ووزارئها لم يجدوا حرجاً في الاقتباس من الحكم والتطبيقات الفارسية في « توقيعاتهم » على شكاوى الناس وعرائض المتظلمين . وليس يهمنا هنا ان نؤرخ لتطور الادب

الفارسي الجديد ، شعراً ونثراً في العصر الاسلامي الا اننا نقول بان هذا الادب بدأ بالظهور بقصائد بسيطة وقليله مع بدايات القرن الثالث الهجري ثم نهض مع ظهور الامارات الفارسية الجديدة في بلاد فارس حيث تعددت المراكز الثقافية من طاهرية في خرسان وزياريه في الديلم وطبرستان وسامانية في نجارى وسمرقند. وغزنويه في غزنه وبويهيه في اصبهان والري . فقد كان لكل اماره من هذه الامارات دورها في حركة الاحياء الادبي الفارسي الجديده وترعرع في بلاطها العديد من الشعراء لعل اهم الرودكي والدقيقي في العصر السامانى . ثم بلغ أوجه في العصر الغزنوي مع ظهور الفردوسي صاحب الشاهنامة (٣٠٨ هـ - ٤١١ هـ) .

ونعود الى التدوين التأريخي الفارسي الذي دخل منعطفاً جديداً بظهور الامارات الفارسية في اقاليم عديدة من بلاد فارس . ويمكن تقسيم هذه الامارات من حيث اهتماماتها بالتاريخ الى اصناف ثلاثه : الاول : وهو الصنف الذي يمثل العودة الى القيم الزرادشتيه والمجوسية والى التقاليد الساسانيه وخير من يمثل هذا الصنف الزياريون وامراء طبرستان ومازندران . ومن البديهي ان هؤلاء لم يكن يهمهم في شيء تأريخ بلاد فارس الاسلامى .

الثاني : ويمثله امراء الزيدية في جيلان والصفاريون في سجستان الذين كانوا يخالفون مذهب الدولة العباسية السني . ولم يهتم هؤلاء بالتدوين التاريخي قدر اهتمامهم بتمييز أنفسهم عن الخلافه العباسية من الناحية المذهبية ولهذا ركزوا على تطور المذهب اكثر من التاريخ .

الثالث : ويمثله السامانيون في خراسان الذين دانوا بالطاعه للخلافة العباسية ولمذهبها السني ، ولعبوا دوراً بارزاً في تطور التدوين التاريخي بالفارسية في ايران . فقد رعوا العديد من الشعراء الفرس . كما شجعوا البلعمي على ترجمة تاريخ الرسل والملوك للطبري . وكانت هذه الترجمة مهمة جداً ثقافياً وسياسياً . فمن جهة يعتبر كتاب البلعمي المترجم ٣٥٣/٩٦٣ هـ من اقدم النصوص النثريه الفارسية ، ومن جهة اخرى فإن السامانين اردوا ان يعبروا بعملهم هذا عن اعتقادهم بان مصير اهل فارس لابد وان يتوحد مع مصير الجماعه الاسلامية المنضوي تحت لواء الخلافة العباسية في بغداد .

ولكن الاوضاع السياسية سرعان ماتبدلت وغدت معظم اقاليم بلاد فارس تحت سيطرة كيانات سياسية تركية جديدة كالغزنويين والسلاجقة والخوارزمية . والغريب ان هؤلاء الترك تبنوا سياسة رعاية وتطوير اللغة الفارسية بحيث غدت اللغة الثانية في العالم الاسلامي خلال هذه الفترة . وفي هذه الفترة كذلك دخلت العديد من الكلمات والمصطلحات العربية الى الفارسية . خاصة وان الترك شجعوا استخدام الفارسية اكثر من ذي قبل .

ورغم انه لم يعرف عن الترك تشجيعهم المؤرخين من الفرس لكتابة التاريخ الفارسي بل اكتفوا بتاريخ البلعمي وما يمثله من شموليه اسلامية ، فإنهم سمحوا للفردوسي بكتابة الشاهنامه التي اصبحت دستور الحياة والمرشد المهم لفئات من الدهاقين، والنبلاء الفرس الذين كانوا لايزالون يحيون حياتهم متمسكين بتقاليدهم وعاداتهم الساسانيه . بل ان السلاجقه في ايران تناسوا اصلهم التوراني واندمجوا في المجتمع الايراني ، وتبنوا تقاليده وحتى عقده تجاه العراق والخلافة العباسية .

ولكن ذلك لايعني انتصار الفارسية في بلاد فارس على العربية فقد ظلت الثقافة في فارس بعد ذلك اكثر من ثلاثه قرون ثنائيه اللغة وكانت الكتب تؤلف بالفارسية والعربية على السواء . كما وان الترك لم يكونوا قانعين بكل ماكتبه الفردوسي في (الشاهنامه) خاصة في تمجيده الزرادشتيه وماضي ايران الساساني والقديم ذلك ذلك لان فئه لابأس بها من هؤلاء الترك دخلت الاسلام لاسباب عقائديه صرفة وليست مصلحة ذاتية ، ولهذا لم يسمحوا بانتشار اراء او جهات نظر معارضة للاسلام او منافية له .

ولقد مرت فترة انتقالية كتب فيها المؤرخين الفرس باللغتين العربيه والفارسية . رغم ظهور كتب تاريخية فارسية خالصة لاتعتمد على مراجع عربيه ولاتعرفها . وقد حدث ذلك قبل اواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .

وبعد هذه الفترة الانتقالية يأتي الحكم المغولي لبلاد فارس فيحدث تغيراً مهماً في الكتابة التاريخية هناك من حيث تختفي اللغة العربية تماماً كلغة للكتابة التاريخ . كما شجعت هذه المرحلة على ظهور كبار المؤرخين الفرس امثال علاء الدين الجويني (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) صاحب تاريخي جهانكشاي ورشيد الدين فضل الله (ت ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م) مؤلف جامع التواريخ .

ولابد لنا ان نشير بأن قيمة المؤلفات التاريخيه الفارسية قبل الفترة المغولية ليست كبيرة فباستثناء البيهقي (ت ٤٧١ هـ / ١٠٧٧ م) الذي كتب تاريخة المعروف في ثلاثين جزءاً . ويشير الدكتور مصطفى « ان مجمل الاعمال التاريخية السابقة له والتاليه لم تؤد الي نتائج هزيلة والى مؤلفات يغلب عليها الطابع الادبي وجمع النوادر » .

اما تاريخ الفرس القديم (قبل الاسلام) فإنه باعتراف المؤرخين الفرس انفسهم مشكوك فيه ورواياته موضوعه واسطورية حيث يقول حمزة الاصفهاني : « تواريخهم كلها مدخولة غير صحيحة » . ويشكك موسى الكسروي بكتاب (خداي نامة) وهو تاريخ ملوك الفرس الذي كان مصدراً لاغلب ماكتب عن تاريخ الفرس القديم ويؤكد انه « لم يظفر من هذا الكتاب بنسختين منفقتين » مما يدل على كثرة الوضع والانتحال فيه . ويبرز فيها غلبة الطابع الفارسي على غيره وتبدو وكأنها في معزل عن التجربة العالمية .

اما المصادر الفارسية في الفترة المغوليه فاذا استثنينا الجويني ورشيد الدين فإن ماتبقى من كتب لاتضيف في غالبيتها معلومات جديدة او مهمة الى ماتقدمه لنا المصادر العربيه عن نفس الفترة الزمنيه . كما وان هذه المصادر مختصره في معلوماتها وتؤكد بصورة خاصة على تاريخ ايران وتفصل فيه مما يضفي عليها صبغه فارسية خاصة على عكس مصادرنا العربيه المعروفة ذات الصبغه الاسلامية والعلمية . كما وتعتمد هذه المصادر على لغه فارسية مكتوبه بأسلوب فارسي فيه الكثير من التكلف والتفخيم والملىء بالمحسنات البديعيه، حتى ليصعب على الفرس انفسهم فهمه دون استعمال قاموس لغوي !! ولعل هذا ينطبق على كتاب (تجزيه الامصار وتزجيه الاعصار) للشيرازي المعروف بوّصاف الحضرة .

لقد اتخذ هذا الاسلوب في السرد التاريخي مثلايتحذى به من قبل المؤرخين الفرس الذين جاءوا بعد وّصاف، الحضرة فأهتموا بالاسلوب وبلاغته اكثر من اهتمامهم بالحقيقه التاريخية بل ربما كان ذلك على حساب الحقيقه التاريخية . وقد استمر هذا النهج لقرون عديدة قبل ان تتخلص منه الكتابة التاريخيه الفارسية . ولكن الاهم من هذا وذاك خلال الفترة المغولية هو ـ وكما (اشرنا ـ ضياع اللغة العربية كلغة ثقافه وتأليف في المشرق وخاصة ايران بعد ان كانت هذه اللغة قد تمكنت وانتشرت على الصعيد الثقافي والعلمي خلال القرون الستة الاولى من تاريخ الاسلام . اما بعد الهجمة المغولية الشرسة فقد انتهت اللغة العربية كلغة ؛ تأليف وادارة وثقافة عامة رغم ان بعض الكتب الفقهية استمرت تكتب بلغة القرأن العربية .

وسنحاول استعراض المصادر التاريخية ذات الاهمية والتي كتبت باللغة الفارسية او ترجمت اليها خلال الفترة الاسلامية :

كتاب خداي نامة في تاريخ ملوك الفرس وسيرهم ... ويبدو ان معظم من كتب في تاريخ الفرس القديم قبل الاسلام اعتمد عليه واستقى معلوماته منه . ورغم ان حمزة الاصفهاني (ت ٣٦٠ هـ تقريباً) لم يكتب بالفارسية الا ان ماألفه من كتب وخاصة تاريخ سني ملوك الارض والانبياء وتواريخ كبار البشر من مضى منهم ومن غبر وكتاب اصبهان واخبارها اهتمت باخبار بلاد فارس واحداثها وملوكها مما أسهم في ترويج تاريخ الفرس قبل الاسلام وبعده .

وقد كتب مرزبان بن رستم بن شروين (مرزبان نامه) باللهجه الطبرية واهداه لأحد امراء الدولة الزيارية ثم نقله سعد الدين الوراويني الى الفارسية في بداية القرن السابع الهجري سنة ٦٠٧ هـ تقريباً .

وقد ألف العتبي (ت ٤٢٧ هـ) كتابه اليميني للسلطان محمود الغزنوي (يمين الدولة) وترجم الى الفارسية في بداية القرن السابع الهجري من قبل ناصح الجربادقاني .

وألف البيهقي (ت ٤٧١ هـ / ١٠٧٧ م) كتابة تاريخ البيهقي عن الغزنويين في القرن الخامس الهجري وتتميز كتابته باسلوبها السهل . ولم يبق منه الا خمس مجلدات طبعت عدة طبعات، كما ترجمت سنه ١٩٥٦ الى العربية .

وكتب الكرديزي (اواسط القرن الخامس الهجري) كتابه عن تاريخ خراسان وسماه زين الاخبار الذي يؤكد على تاريخ خرسان من الفتح العربي الاسلامي حتى اواسط القرن الخامس تقريباً . كما ألف في نفس القرن ناصري خسرو (ت ٤٨١ هـ / ١٠٨٧ م) كتابة سفرنامه بالفارسية . ونظام الملك الطوسي (ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) كتابه سياسة نامة .

اما القاشاني الذي وزر للعباسيين والسلاجقه وتوفي سنه ٥٣٢ هـ / سنه ١١٣٧ م فقد كتب بالفارسية كتاباً سماه (فتورزمان الصدور المبني عن القرون الخاليه في العصور) ، كما كتب نظامي عروضي (السمرقندي (ت ٥٦٠ هـ / سنه ١١٦٤ م) كتابة مجمع النوادر او (جهار مقالة) بالفارسية . وألف ابن فندق البهيقي الخراساني (ت ٥٦٥ هـ / سنه ١١٦٩ م) كتابه (مشارب التجارب وغوارب الغرائب) بالعربيه والفارسية وينتهي سنة ٥٤٩ هـ /

. كما اتم البهيقي الثاني عمل البهيقي الاول بان الف ذيلاً لتاريخ نهج به منهج التراجم لا الاحداث .

وكتب النيسابوري كتاباً في تاريخ السلاجقة بالفارسية سماه (سلجوقنامة) يحوي اخبار السلاجقة حتى سنة ٥٩٠ هـ / سنة ١١٩٤ م . وقد ذيل عليه عدد من المؤرخين . كما ألف الراوندي (ت ٥٩٩ هـ) كتابه (راحة الصدور واية السرور) . ومبارك شاه فخر الدين (شجرة انساب الفرس) في حوالي سنة ٦٠٢ هـ / سنة ١٢٠٢ م

ولفخر الدين الرازي محمد بن عمر التميمي (ت ٦٠٦هـ بهراة) كتاباً في التاريخ بالفارسية اسمه (حدائق الانوار في حقائق الاسرار) واهداه الى سلطان الخوارزميه علاء الدين تكش . وقد كتبه بالعربيه كذلك وأعطاه اسماً جديداً هو (جامع العلوم) .

وألف عميد الملك بن الكرماني (ت ٦١٢ هـ) ثلاثه كتب بالفارسية كلها في تاريخ كرمان هي (عقد العلى للموقف الاعلى) و (بدائع الزمان في وقائع كرمان) وذيل وقائع الزمان .

وظهر في الفترة تاريخ طبرستان بالفارسية لابن اسفنديار (ت ٦١٧ هـ) كما ظهر قبله عدد من كتب التواريخ المحلية مثل تاريخ سيتان وتاريخ هراة وتاريخ همذان وكلها لمؤلف مجهول او اكثر .

ثم ظهر كتاب (لباب الالباب) بالفارسية لمحمد عوفي (ت ٦٣٣ هـ) وهو معجم لشعراء الفرس . واالف النسوي (ت ٦٤٧ هـ) صاحب كتاب سيرة جلال الدين منكوبرتي كتاباً اخر بالفارسية سماه (نفثه المصدور في فتور زمان وصدور الفتور) . اما الجوزجاني (ت ٦٥٩ هـ) فله بالفارسية (طبقات ناصري) الذي انتهى من تأليفه، سنة ٦٥٩ هـ واهداه للأمير ناصر الدين محمود شاه . وللمؤلف كتب تاريخية اخرى بالعربيه .

اما ماكتب من المصادر الفارسية في الفترة المغولية فلعل رسالة نصير الدين الطوسى (ت ٦٧٢ هـ) في فتح بغداد تعتبر اول تاريخ لسقوط بغداد من قبل شخص خان الامانة وشارك في العملية لانه كان مقرباً لهولاكو وعن طريقه اتصل هولاكو بشخصيات سياسية بالعراق .

وربما كان اهم كتابين عن هذه الفتره باللغة الفارسية كتاب عطا ملك الجوني (٦٨١ هـ) المرسوم جهانكشاي اي فاتح العالم خاصة وانه كالطوسي رافق حملات المغول ثم استوطن بغداد بل وتولى مسؤولية الادارة والحكم فيها لاكثر من عشرين سنة . ثم كتاب رشيد الدين فضل الله الهمداني (٧١٨ هـ) المرسوم (جامع التواريخ) وقد اكمله حافظ أبرو (ت ٨٣٤ هـ) بذيل وضعه له . وتأتي بعدها عدد من التواليف منها قد اشرنا اليها مثل طبقات ناصري وتاريخ وصاف او لم نشر اليها مثل : خوندمير ومؤلفه (حبيب السير في اخبار افراو البشر) والراوندي (راحة الصدور وأية السرور) والقروييني (تاريخ كزيدة) (ونزهة القلوب) ومير خوند (روضه الصفا) . ولاتضيف هذه المصادر المتأخرة معلومات مهمة الى ماتقدمه لنا المصادر العربيه ، ومن الطبيعي ان تركز اهتمامها الى احداث بلاد فارس اكثر من بقيه الاقاليم الاسلامية .

☆ ☆ ☆

لقد ادرك الباحثون المحدثون في تاريخ فارس في العصر الاسلامي الوسيط محاولات فئات عديدة في ذلك الاقليم لابقاء « القديم على قدمه » وقد ظهرت هذه المحاولات بمظاهر عديدة منها التميز والاستعلاء او الانحراف او عدم الامتزاج والانسجام في الخط العربي الاسلامي العام تبنته الخلافة وعملت على توكيده فكراً وسياسة في كل اقاليم الدولة .

كما لاحظ الباحثون تعلق هذه الفئات الفارسية بتاريخ بلاد فارس قبل الاسلام وبالمفهيم التراثية الفارسية المجوسية ومحاولة الحفاظ عليها بشتى الوسائل بل واعتبارها بديلة للقيم العربيه الاسلاميه الجديدة ولسنا هنا بصدد استعراض وتحليل الدراسات التاريخية الحديثة عن بلاد فارس في العصر الاسلامي الوسيط ولكننا نود ان نشير فقط الى استغلال المستشرقين لهذا الموقف الفارسي « المميز » او « المتمرد » او « المنحرف » او سمه ماشئت من الاسلام والخلافه . حيث جابهت الدين والدولة نزعه فارسية ـ مجوسية معارضه قادتها فئات من الدهاقين والنبلاء ورجال الدين المجوسي هدفها اعاقة كل الجهود الرامية لنشر الدين الجديد بمثله وقيمه وعرقلة جهود الدولة في تثبيت حكمها لبلاد فارس . والتشبث بالقيم المجوسية بما تمثله في قيم دينية ونزعه عنصرية ضيقه .

بدأ اهتمام الاستشراق بتاريخ بلاد فارس مع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي ولعل المحاولات الجادة بدأت مع السير جون مالكولم حين نشر سنه ١٨١٥ م كتابة الموسوم « تاريخ بلاد فارس » وتبعه، بروان في كتابه « تاريخ الادب الفارسي » سنه ١٩٠٢ م ثم كتب السير سايكس كتابة « تاريخ بلاد فارس » سنه ١٩١٥ . وكما هو معروف فإن من الدوافع البارزة الى ظهور الاستشراق الحديث هو الدافع السياسي الاستعماري ، فالمنافسة بين الدول الاستعماريه للسيطرة على الهند واقاليم الشرق الاوسط اظهرت الحاجة الملحة الى معرفة احوال الشرق وتاريخه ونشر معلومات موثقه عن هذه المناطق التي غدت مهمة بالنسبة للحكومات الاوربية التي كانت لها مصالح حيوية في الشرق . على ان الدافع السياسي الاستعماري على اهميته لم يكن الدافع الوحيد للدراسات الاستشراقية فأزدهار التجارة مع الشرق وارتفاع مستوى الثقافة في اوربا وحب الاطلاع ساعد على ازدياد الرغبه لمعرفة تاريخ الشرق وحضارته في اوربا .

لقد اشار السير سايكس حين تكلم عن هدفه من كتابة تاريخ بلاد فارس الى الحاجة الى وجود معلومات موثقه وحديثة لموظفي الحكومة البريطانية وعبر عن امله ان يكون الكتاب ذو فائدة للحكومة البريطانية وصانعي القرار السياسي البريطاني والذين يؤثرون في تكوين الرأي العام البريطاني . واهدى كتابه الى موظفي حكومة الهند البريطانية والحكومة البريطانية في لندن .

لقد استمرت هذه السلسله من المستشرقين المهتمين بتاريخ بلاد فارس بعد مالكولم وبراون وسايكس ولم تنقطع حتى وقتنا هذا رغم تغير الظروف والدوافع وتعددها . وبرز من بين هؤلاء المستشرقين نفر اكدوا على هذه « الخصوصيه الفارسية » او الايرانية وابرزوها في بحوثهم . كما حاولوا بشتى الطرق والوسائل تبريرها اما بالرجوع الى تاريخ ايران القديم قبل الاسلام مستندين الى مصادر اسطورية وملاحم فلكلورية من تلك التي جمعها وأشاعها الفردوسي في شاهنامته . اما في تاريخ ايران الاسلامي فقد خلقوا مايسمى بـ « مشكلة

الموالي » وهم المسلمين من غير العرب وخاصة الفرس « وسوء معاملة العرب لهم » مستندين على روايات شاذة غير متواترة وعلى حالات استثنائية مؤكدين الزعم القائل « عن سياسة التمايز الاجتماعي والاقتصادي بين العرب والموالي التي سارت عليها الدولة » .

لقد إنطلق بعض المستشرقين من هذه الاسس الخاطئه وبنوا عليها فرضيات خاطئه في تفسير تاريخ ايران الاسلامي فاذا بالثورة العباسية عندهم « ثورة قامت على اكتاف الفرس » واذا بالنظم الادارية والسياسية في العصر العباسي « نظم مبنية على افكار فارسية » واذا بالحضارة العربية الاسلامية « لم تزدهر لا بالعلماء الفرس ، وان جل علماء الملة الاسلامية من العجم » !! واذا بالشعوبية « حركة تدعو الى المساواة بين فئات المجتمع الواحد » وهي حركة « تنزع منزعاً انسانياً ذو افق عالمي واسع يهدف الى خلق حضارة عالمية اساسها الثقافة الفارسية الارامية » اما النزعة العربيه ـ الاسلامية المضادة للشعوبية فعند نفس الفئه من المستشرقين « نزعة اقليميه ضيقه الافق رجعية » !! وهكذا عكس هؤلاء المستشرقون الأية تماماً لان الجاحظ وهو المفكر الاسلامي العالمي ـ وكان فارسياً في اصله ـ اكد في اكثر من مناسبة على عنصرية الشعوبية وضيق افقها وعدم مرونتها امام النزعه العربية الاسلامية .

اما الزنادقة فهم ـ بالنسبة لنفس الفئه من المستشرقين ـ مفكرون احرار يحاولون الوصول الى الحقيقة . اما الحركات الخرمية المسلحة في فارس وكذلك الحركات الانفصاليه فهي نزعات استقلاليه للتخلص « من التسلط العربي الاسلامي » وبدايات « للنهضة الايرانية الجديدة » .

ورغم ان التشيع كمذهب ديني لم يظهر في بلاد فارس الا متأخراً في بداية العصر الحديث وان الحركة الشيعيه، العلويه كانت في فترة الخلافة الاسلامية حركة عربية فان العديد من المستشرقين ألصق التشيع العلوي ببلاد فارس منذ بداية الاسلام . فالبروفسورة لامبتون تقول :

« رغم ان التشيع غدا مذهب الاكثرية في فارس في العصر الصفوي

فانه (اي التشيع) كان مذهباً متوطناً endemic في بلاد فارس »

بل ان بعض المستشرقين قال بالاصل الفارسي للتشيع العلوي . منهم ملر وقون كريمر وجويدي ودارمستتر ، بل ان دوزي زعم ان الشيعة فرقه فارسية بحته !! فهو يقول :

«كانت الشيعة، في حقيقتها فرقة فارسية وفيها يظهر بصورة جلية

ذلك الفارق بين العرب المحبين للحرية والفرس الذين اعتادوا الخضوع كالعبيد » راجع ولهاوزن ، احزاب المعارضه ص٢٤ ـ ٢٤١

والواقع ان دوزي بالغ كثيراً بحيث انحرف عن الصواب ، وربما كان من الاجدر القول بأن مذهب التشيع شأنه شأن المذاهب الاسلامية الاخرى تبدلت وتغيرت وشوهت بعد دخولها الى بلاد فارس بفعل عوامل ومؤثرات عديدة في البيئة الايرانية .

وعلى هذا فان الباحث المؤرخ لتاريخ ايران في العصر الاسلامي يفاجئ بالعديد من التخريجات الاستشراقية التي ليس مايبررها تاريخياً هدفها ابراز موقع ايران « الخاص » ودور الفرس « المميز » في العالم الاسلامي ولسنا في مجال حصر هذه التخريجات ولكننا نضرب بعض الامثله على ذلك :

ففي سنة ١٩٠٠م كتب جولد تسيهر يؤكد على النزعه الفارسية في مقابل النزعه الاسلامية اختار له عنواناً مثيراً هو النزعه الاسلامية والنزعه الفارسية وكتب بارتولد عن الشعوبيه والعالم الجديد

ابان فيها اثر الشعوبية في التقدم الحضاري في عصر الخلافة !!

واكد فان فلوتن ولها وزن وفراي على الامبراطورية العباسية « الفترسية » ....

THE PERSIAN EMPIRE OF THE ABBASIDS .....

بل ان المستشرق ويت يسمى الخلافة الاموية « بيزنطيه جديده » والخلافة العباسية « ساسانيه جديده »

THE NEO. SASSANID EMPIRE OF THE ABBASIDS....

ثم ان دخول بلاد فارس ضمن الدوله العربيه الاسلاميه لم يغير البلاد شيئاً يذكر في تلك البلاد في نظر المستشرق فراي ...

YET THE TRANSITION FROM PERSIAN TO ARAB RULE PPPAPPACRENTIY

WAS MEITHER AQ :EAT UPHEAVAI NORS AQRCEAT INNOVATIO

ويلاحظ الباحث تعابير وتخريجات اخرى كثيرة في تفسير مواقف سياسية فارسية ، كلها تؤكد على نفس الفكرة وهي محاولة ابراز الدور الفارسي ... ففي تفسير ردة الفعل الفارسية ضد القيم العربية الاسلامية وضد السلطة السياسية الاسلامية نقرأ العناوين التاليه :

ISLAM VERSUS IRAN ... الاسلام وايران متضادان

THE PERSiAN CONQUEST OF ISLAM ... الغزو الفارسي للاسلام

THE NEW PERSiAN RENAiSSANCE ... النهضة الفارسية الجديدة

بل ان المستشرقين فراي يزعم بان الشعوبية ارادت ان تحول الديانه الاسلامية الى ديانه فارسية ـ عالميه بدلاً من بقائها ديانه عربيه محدودة !! فهو كما اشرنا سابقاً يقلب الصورة تماماً لصالح الفرس !!

By the time of the Abbsid, the guestion at stake

was not IsLam or Isan but rather apersianised InternationaL

IsLam or anarrow Arab IsLam

هذه نماذج قليله من تخريجات بعض المستشرقين المهتمين بتاريخ بلاد فارس وكما لاحظنا منهم

يحاولون دون جدوى ايجاد تبريرات للنهج المتعنت والمعارض الذي سارت عليه ايران في العصر الاسلامي الوسيط . ومن جانبنا فاننا نكتفي بالرد بالاقتباس فقط من محاضرة المستشرق أرنجاني المتخصص بتاريخ ايران والذي قال قولة حق اصبحت مثلاً في كلامه امام المؤتمر الدولي للاستشراق :

THE PERSiANS ARE iNTHE ISIAMiC WORLD BUT NOT OFiT .... THEY ALWAGS LOOK WiTH NOSTALGiA ACROSS THiRTEEN HUNDRED YEARS TO PRE ISLAMiC IRAN ... THEiR HEART iS STiLL iN THE RUiNS OF PERSO-POLiS

« ان الفرس ضمن العالم الاسلامي (جغرافياً) ولكنهم ليسوا من العالم الاسلامي ، فهم الايزالون يتطلعون بشوق عبر ١٣ قرناً الى ايران قبل الاسلام . ان قلوبهم لاتزال شفوفه بخرائب بيرسوبولس (اصطخر) » واخيراً وليس آخراً فان النهج المتعنت والمعادي الذي اخطته ايران لنفسها استمر عبر التاريخ الحديث والمعاصر . فمن اجل ايجاد التبريرات التاريخية لاطماع ايران وادعاءاتها في الخليج العربي طلبت وزارة الخارجية الايرانية من السيد عباس اقبال ان يؤلف كتاباً في تاريخ الخليج وقد نفذ اقبال ماكلفته به وزارة الخارجية الايرانية فأصدر كتاباً سنه ١٩٤٩م باسم « مطالعاتي درباب بحرين والجزائر وسواحل خليج فارس كذا » فكان غير موضوعي بل منحازاً ومؤيداً لاطماع ايران التوسعية في الخليج فأهمل عن قصد كل ماله علاقة بدور العرب وكياناتهم السياسية في العصر الوسيط وبدايات العصر الحديث فرسم صورة ايرانية مشوهة لتاريخ الخليج العربي .

ونأمل من جانبنا الا نقابل بالقصب ولا التزمت بمثله فقد علمنا اسلافنا العرب المسلمين انهم ربحوا الجولة ضد الشعوبية بسبب مرونتهم وموضوعيتهم وسعه افقهم .

LiTERARY JHiSTORY OF PERSiA, 2 VOLS, CAMBRiDGE

الهوامش

(١) الجاحظ ، ثلاث رسائل ، تحقيق فان فلوتن ص ٤٤

(٢) الطبري ، جامع البيان .. هذا ص ١٣٨.

(٣) الدنيوري، الاخبار الطوال : ليدن ١٨٨٨

(٤) حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والا ، ١٨٤٤

(٥) راجع على سبيل المثال : تاريخي بخارى وتاريخ سيستان وقوفهما بجانب الحركات المناهضة للخلافة العربية الاسلامية

(٦) الجاحظ ، فهم اخلاق الكتاب ، في رسائل الجاحظ ، ص ١٩١ فما بعد

(٧) ابو منصور الثعالبي ، غررسير ملوك الفرس ، باريس ، ١٩٠٠

(٨) الفردوسي، شاهنامة ، القاهرة ، ١٩٣٢

(٩) كرستنسن ، تاريخ ايران في العصر الساساني ، مترجم ، القاهرة ، ١٩٥٧، ص ٤٦ - ٦٠

(١٠) BROWNE, LITERARY HISTORY OF PERSIA, 2 VOLS. CAMBRIDGE, 1902

(١١) كرستنين ، المصدر السابق ص ٥٦

(١٢) فاروق عمر ، حول طبيعة الحركة الشعوبية ... مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٥

(١٣) ابن قتيبه ، في رسائل البلغاء ، ص ٣٤٤ تحقيق محمد كرد علي

(١٤) راجع حسن محمود ، الاسلام في اسيا الوسطى ، القاهرة ١٩٧٢ .

(١٦) راجع المصدر السابق ص ٧٧ فما بعد

كذلك

BROWNE , OP . CiT , P. 235

(١٧) بلعمي ، ترجماني تاريخي طبري ، ١٩٠٦ م

(١٨) راجع شاكر مصطفى ، التاريخ العربي المؤرخون ، ج بيروت ١٩٧٩ ، ٣٦٢ فما بعد

عماد عبد السلام رؤوف ، التاريخ المؤرخون العراقيون ، بغداد ١٩٨٣ ، ص ١٢ فما بعد

(١٩) شاكر مصطفى ، المصدر السابق ،

(٢٠) المصدر السابق نفسه

(٢١) الجويني ، جهانكشا (عن المغول)

(٢٢) رشيد الدين فضل الله الهمداني ، جامع التواريخ ، (عن المغول)

(٢٣) فاروق عمر ، الاستشراق وتاريخ العصر العباسي ، آفاق عربية ١٩٨٦ (دوريات)

(٢٤) ادوارد سعيد ، الاستشراق، بيروت ، ١٩٨١ (مترجم)

طيباوي ، المستشرقون الانكليز ، لندن ١٩٦٤ .

(٢٥) فان فلوتن ، السيادة العربية ، ليدن ، ١٨٩٠ ، (مترجم) ولها وزن الدولة العربية وسقوط ، ١٩٢٢ (مترجم)

(٢٦) حول هذه الاراء راجع فاروق عمر الاستشراق وتاريخ العصر العباسي ، دوريات آفاق ٩٨٦

(٢٧) فاروق عمر ، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين ، بغداد ١٩٨٥ ، ص١٠٩ فما بعد١ وما بعد

(٢٨) LAMBTON ISIAMIC SOCIETY IN PERSIA, LONDON, 1954 54

(٢٩) ولها وزن، احزاب المعارضة في للاسلام ، هي ٢٤٠ - ٢٤١

(٣٠) فاروق عمر الحركات الدينية - السياسية في بلاد فارس ، افاق عربية ، ١٩٨٥

(٣١) جولدتسهير الشعوبية ... ص ٢١

(٣٢) FRYE, THE ABBASiD CONSPiRACY 1952

(٣٣) WEIT. LEMPIRE NEO. BIZANTIN C. H. M. ,1953

(٣٤) ERYE, THE HERITAGE OF PERSIA, 1962

(٣٥) ARMAgANi LNTENNATIONAL CONGREM & THE OSIWTALIT.

(٣٦) فاروق عمر ، العراق والتحدي ... ، دراسة غير منشورة ((مقدة الطبع)